مقيـــاس الرقى

للأستاذ أحمد امين

سألنى أديب سورى ، بمناسبة مقال كتبته عنوانه «المسلمون أمس واليوم» :

بم نعـــد أمة أرقى من أمة ، وما العوامل التى نحسبها ونقيس بها الرقى ؟ وفى الامة الواحـدة - اذا سئلنا أكانت بالامس خيراً منها اليوم ، أم هى اليوم خيرٌ منها أمس . فأى النواحى نرعاها عند النظر ؟

والحق أنها أسئلة فى منتهى الصعوبة ، يحار المجيب عنها أى العوامل يحسب وأيها يترك ، وأيها لها قيمـــة كبيرة الأثر وأيها ضعيف الاثر ؟

قد يجيب مجيب اجابة سهلة من طرف اللســـان فيقول « مقياس الرقى فى الامم الاخلاق » فأرقى الامم أحسنها خلقا ولكن هذه الاجابة لا تقنع ، فالاخلاق متغيرة ، وكل عصر له أخلاق يتطلبها وواجبات ينشدها ، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجدادنا منها ، أصبح واجباً علينا أن نعلم أولادنا فى المدارس ، وما كان ذلك واجبا من قبل انمـا كان تبرعا من الاب ، وأصبح واجبا علينا ترقية الوطن من جهات متعددة وما كان ذلك واجبا من قبل ، وان كان واجبا فواجب غامض ليس محدود المعنى ولا معين الاتجاه ، وكان آباؤنا يعدون من أرقى الاخلاق فى الامة حجاب نسائها وبناء سور متين بين الرجل والمرأة ، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرأة كما يتعلم الرجل ، ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل ، وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل ، فاذا قلنا مقياس الرقى الاخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شىء ولا تدل على شىء .

وقوم يقيسون الرقى بالدين ، وهى كذلك كلمة عامة يختلف مدلولها باختلاف أنظار الناس فيضيق عنـــد بعض الناس حتى لا يسع الا الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ويتسع عند بعض الناس حتى يشمل كل شىء .

وفى الحق أن هناك مناحى للحياة مختلفة متعددة يجب أن ينظر اليها كلها لتقويم الرقى - ففى كل أمة مجموعة من المرافق ، يعد كل مرفق منها كالخلية فى الجسم الحى : من حكومة وتعليم ولغة ودين وأسرة ونظام اقتصادى ونحو ذلك ، كلها تتغير وكلها ترقى أو تنحط ، وكلها فى حركة مستمرة دائمـا إما الى الامام وإما الى الخلف . وكلها تتفاعل تفاعلا قويا ، يؤثر قويها فى ضعيفها ، وضعيفها فى قويها - وهذا التغير الدائم فى كل هذه المرافق هو مقياس الرقى والانحطاط ، فان كان تغـــيراً الى سمو فرقى ، وان كان تغيراً الى تدهور فانحطاط

وحسبان هذا ليس بالأمر اليسير ، فقد تتدهور بعض المرافق لاسباب خاصة ، وتسمو بعض المرافق لأسباب كذلك ، ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة فينشأ من ذلك عملية حسابية من أصعب المسائل حلا . والمثل الأعلى للأمة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدى عمله خير اداء ، ويتنقل فى سمو أبدا ، وأن يكون سيره ورقيه فى حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية ، لا يطفر عنها ولا يقعد بها - فالامة التى تختار أحسن النظم فى التربية والتعليم ولا تساعدها اللغة على المصطلحات الحديثة لاترقى فى التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية ، والأمة التى تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية ، ثم لا يعينها على ذلك حالة الاسر الاخلاقية وحالة المعاملات بين الافراد لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية ، والأمة التى تسن أرقى أنواع الاصلاحات الاجتماعية ثم لا تعينها الناحية الاقتصادية تصبح واصلاحاتها تسر القارىء ولا تسر الناظر وهكذا .

* * *

وهناك دلائل قوية تدل الباحث على رقى الامة وتدهورها وسيرها الى الامام أو الى الخلف ، إما بمقارنتها بغيرها من الامم فى نواح معينة أو بمقارنتها بنفسها فى عصرها الحاضر

وعصرها السابق ، والمقارنة الاولى تدلنا على الدرجة التى تقف عليها الأمة فى سلم الرقى العام ، والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها : الى فرق أو الى تحت

من أهم هذه الدلائل تعرف موقف الامة ازاء مايحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية : هل هذا الجيل أحسن استخداما لبيئته وما يحيط به ؟ هل استطاع أن يوجد منابع لثروته وسعادته أكثر مما استطاع أسلافه ؟ هل استخدم المنابع القديمة خيرا مما استخدمها آباؤه ؟ هل كان فى حله لما يعرض له من المشاكل الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقا لما عرضت هذه المصاعب أو أمثالها لنا ولآبائنا كيف حلوها وكيف حللناها ، ومامنهجهم فى الحل وما منهجنا ؟ مامقدار تضامن الافراد يومذاك فى التغلب عليها ، وما مقدار تضامننا اليوم ؟ لكل أمة مقدار من الثروة ، فهل زادت ؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بثروتها أكثر مما كانت تسعد بها من قبل ؟ هل استخدمت العلم أحسن مما استخدمه آباؤها فقلت الوفيات وتحسنت صحتها ، وجمل منظرها ، ونظفت عيشتها ، وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والأدب ؟ أظن ان هذه الاسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكن الأجابة عليها عسيرة ، وبذلك نستعين على تعيين الاتجاه ومقدار الرقى ان كان .

***

ومن ناحية أخرى ، ربما عد من أكبر دلائل الرقى فى الأمة « تذليل العقبات امام الكفايات » فخير الأمم من أفسحت السبيل أمام أفرادها ليرقوا كما يشاؤون حسب استعدادهم وجدهم ، فى التعلم ، فى الوظائف ، فى النواحى السياسية والاجتماعية — وقد قطعت الأمم المتمدنة فى ذلك خطوات واسعة ، فازالت احتكار الارستقراطية للمناصب العليا ، وسهلت وسائل التعلم لمن شاء ، واعتمدت فى تقدير الاشخاص على مزاياهم لا على بيتهم — الى درجة كبيرة — وحاربت « المحسوبية »

والنزعات الارستقراطية ، وقضت على النظام الاقطاعى الذى يميز بين الطبقات ، ويضع حدا فاصلا بينها لا يمكن تخطيه ووضعت النظم الاقتصادية الحديثة ، وفيها يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه ان يصل إلى ما يستطيع من رقى — وان كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية فى ذلك ، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات طويلة يجب ان يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته وبلوغ شأوه

***

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقى النظر الى ثروة الأمة ومقدار مايصرف منها على « الصالح العام » من مدارس ومصانع ومساجد ومتنزهات وحدائق وماء وانارة ونحو ذلك ولست أعنى النظر الى كمية مايصرف فحسب ، ولكن أعنى أيضا كيفية الصرف ، وهل انفق هذا القدر فى أحسن السبل وهل هناك وجه آخر خير منه ؟ . كذلك لست أعنى ماينفق فى ذلك من ميزانية الحكومة فقط ، ولكن اعنى أيضا مقدار شعور الافراد فى هذا الباب ومقدار مايتبرعون به من أموالهم لهذا الصالح العام ، فليست ثروة الأمة مقصورة على ميزانية الحكومة ولكنها تشمل ثروة الأفراد « وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » فالأمة التى لا يشعر أغنياؤها بواجب فى أموالهم لفقرائها ، أو يشعرون شعورا ضعيفا لا يقوى على استخراج المال من جيوبهم ، أمة منحطة اذا قيست بغيرها من الأمم التى كثرت فيها المدارس والاندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها

ومما يتصل بهذا الأمر ، النظر فى ميزانية الأسر فى الأمة وكيف تنفق ، فأمة خير من أمة اذا عرفت أسرها كيف توازن بين دخلها وخرجها ، وكيف تفرق بين الضرورى والكمالى وما ليس بضرورى ولا كمالى ، ولم تسمح لنفسها أن تصرف فى الكمالى حتى تستوفى الضرورى ، ولا فى غير الضرورى والكمالى — حتى تستوفى الكمالى ، فذلك — من غير شك — يجعل الأسر أسعد